

تاريخ القبول: 2019/11/22

تاريخ الإرسال: 2019/04/14

تاريخ النشر: 2020/04/26

البعد الإيديولوجي للمسألة الثقافية في الجزائر**The ideological dimension of the cultural issue in
Algeria**

عمر زهواني

جامعة ابن خلدون - تيارت . zahouani_o@yahoo.com

الملخص:

لفهم الوضع السائد من الممارسات في أي مجتمع، من الضروري تناول مفهوم الإيديولوجيا، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالإطار الفكري والتوجه الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، أو الثقافي بصفة عامة هذا الذي يتحول إلى ممارسات تتجسد في الواقع الاجتماعي المعاش في التفاعل المباشر وغير المباشر بين الأفراد، والجماعات، لأن الأفكار لا تبقى في إطارها الفكري النظري، إنما تتحول إلى أفعال مادية ملموسة (التحكم في وسائل الإنتاج المادية يؤدي إلى التحكم في وسائل الإنتاج العقلية)، كما أن حالة الفوضى في الأفكار، والمبادئ، والقيم أو ما يعرف باللبس في الهوية تنتج الفوضى المجتمعية، ليس المجتمع الجزائري بمنأى عن هذا التحليل المختصر؛ لاعتبار مهم، وجوهري يتمثل في مشروع بناء الدولة الجزائرية بعد الاستقلال، هذا المشروع الذي انتهج القائمون عليه خيارات إيديولوجية تحت غطاء ديني، قومي، اقتصادي، وبالتالي: كيف تعامل التوجه الإيديولوجي بعد الاستقلال مع الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري؟.

كلمات مفتاحية: الإيديولوجيا، المسألة الثقافية، الهوية، المشروع المجتمعي.

Abstract:

To understanding the prevailing state of practice in any society, it is necessary to address the concept of ideology, which is closely linked to the intellectual framework and the economic, social, political or cultural orientation in general, which is transformed into practice on the social lived in direct and indirect interaction between individuals, And groups, because ideas do not remain within their conceptual framework, they are transformed into concrete physical acts (control of physical means of production leading to control of mental means of production), and chaos in ideas, principles, values or, confusion in identity produces social chaos. Algerian society is not immune from this brief analysis as an important and fundamental consideration in the project of building the Algerian state after independence. This project, which was implemented by the people who carried out it, is a comprehensive containment ideology under religious, national and economic cover. And therefore How the ideological orientation project deal treated with the cultural specificity of Algerian society?

Keywords: Ideology, Cultural issue, Identity, Society project.

المؤلف المرسل: عمر زهواني ، الإيميل: zahouani_o@yahoo.com

مقدمة

المجتمعات المتخلفة حديثة الاستقلال مازالت حبيسة تحقيق مشروع مجتمعي يقوم على آليات ونموذج الدول الغربية المتقدمة، ولكن هذه المحاولة عرفت الكثير من التشنجات والتصدعات أبرزها إشكالية الهوية الثقافية بالمعنى الواسع للكلمة حيث تتدرج كل العناصر المكونة للهوية الثقافية؛ من دين ولغة، ومعتقد،

وعرق... السنوات الأولى للاستقلال كانت بمثابة مسرح لعرض الإيديولوجيات التي استيقظت أو بالأحرى تكسرت أمام جدار الوحدة والنضال من أجل تحرير البلاد، لكن في عهد الاستقلال سرعان ما تغيرت الأمور وأصبحت تتفاقم سنة بعد أخرى نظرا للوضع الذي كانت تعيشه المسألة الثقافية.

وهذا يعود إلى كون المشروع المجتمعي الجزائري بعد الاستقلال لم يستطع أن يجدد الطرح الذي يقتضي إنتاج إيديولوجية جديدة للإنسان "المحرر" ذو خصوصية جزائرية تعيد صياغة ثوابت الهوية الوطنية وتعطي المكانة اللازمة للخصوصية الثقافية في الشخصية الجزائرية، وهذا يعود إلى عدة عوامل منها: سياسة التصنيع التي انتهجها النظام السياسي بعد الاستقلال مباشرة وتجاهل الجانب الأهم في الإنسان، والفرد الذي سيقوم بهذا التصنيع هذا الجانب يتمثل في الهوية الثقافية؛ التي لا يمكن عزلها عن الإيديولوجية باعتبار أنها حسب "ألتوسير" « نظام من التخيلات، والأساطير، والأفكار والتصورات... التي تملك وجودا ودورا تاريخيا في المجتمع... ففي كل مجتمع نلاحظ وجود نشاط اقتصادي ونظام سياسي وأشكال إيديولوجية (الدين، الأخلاق، الفلسفة...).

الإيديولوجية تمثل النهج المجتمعي في كل المجالات كما تمثل النفس التي لا تستطيع المجتمعات الإنسانية الاستغناء عنها في حياتها التاريخية¹. « هذا ما يبين ارتباط الإيديولوجية بالممارسة الاجتماعية، وبالتالي تشكل جزءا لا يتجزأ من الهوية الثقافية بالمعنى الواسع للكلمة.

أولا: مفهوم الايدولوجيا

يذهب "غورفيتش" إلى أنه في أعمال ماركس الشاب يتسم مفهوم الأيديولوجيا بطابع الازدراء وقد استخدمه ماركس في كتابه (الإيديولوجية الألمانية) عام 1845 ليهاجم به الفلسفة الألمانية في عصره ليثبت عدم جدواها، ومن هنا

وصفت الإيديولوجية بأنها مفهوم يقبل الأشياء رأساً على عقب، أنها الصورة الكاذبة التي يرسمها الناس على أنفسهم بهدف تبرير بعض الأوضاع الاجتماعية الخاصة².

ومنه يتضح دور الإخضاع الذي كانت تلعبه الإيديولوجية حسب هذه العبارة "غورفيتش" وهذا الإخضاع يحمل بعداً اقتصادياً و لكن بتخطيط و إستراتيجية سياسية، لقد كان "ماركس" مهتماً بالدور الذي تؤديه الإيديولوجية في تعميق و تكريس عدم المساواة الاجتماعية، فالأفكار لا تتبثق من الممارسات الاجتماعية المتناقضة فحسب، ولكنها تساعد أيضاً في إعادة إنتاجها. الإيديولوجيا كانت دائماً مساعداً في تحقيق مصالح الفئات الحاكمة التي توجه وتشرف على المعرفة الاجتماعية؛ حسب "ماركس" فإن الإيديولوجيا السائدة تعمل على التزييف والخداع، وذلك لإظهار خصوصيات المجتمع في صورة غير حقيقية، وزائفة. إنها صورة النظام المتناسق سياسياً، وأن كل نمط إنتاج لديه طبقة في صورة متميزة مستفيدة وهي التي تسيطر على وسائل الإنتاج وتهيمن على المجتمع، هؤلاء المستفيدون يسعون إلى خلق مؤسسات سياسية، تدعم قوتهم القهرية³.

مفهوم الإيديولوجيا عند ماركس مرتبط بالجانب الاقتصادي، ولكنه يتعدى ذلك بقصد من ماركس، عندما يضيف، بأنه من يتحكم في وسائل الإنتاج الاقتصادية يتحكم في وسائل الإنتاج العقلية؛ لأن الإنتاج العقلي يتجاوز السلوك المادي و الاقتصادي للإنسان. لذلك يعتقد بأنها « مجموعة من الأفكار المهيمنة التي يحملها المجتمع أو فئة اجتماعية. في إطار البنى الفوقية للمجتمع. وهي مشروطة بالإطار الاقتصادي و تشكل انعكاساً له⁴؛ تتعلق الإيديولوجيا إذا بعلاقة المعاناة التي تربط الناس بعالمهم وأن هذه العلاقة لا تظهر (واعية) إلا بشرط أن تكون غير واعية، يظهر أنها بنفس الكيفية، لا تظهر بسيطة إلا بشرط أن تكون

مركبة. « فالناس لا يعبرون في الايديولوجيا على علاقتهم مع ظروف عيشتهم بل عن الكيفية التي يعيشون بها علاقتهم مع تلك الظروف⁵».

ومن وجهة نظر المنظور المادي للإيديولوجية الذي يمكن إسقاطه على الجانب الفكري والهوية الثقافية من وجهة نظر المركسية، تُميز في الحياة بين ما يقوله أو يتصوره الإنسان عن نفسه، وبين ما يقوله، وما يفعله. كذلك الأمر بالنسبة للطبقة السياسية؛ أي بين الصورة التي تكونها عن نفسها وبين ما هي عليه في حقيقة الأمر؛ « لقد فقد المفهوم معناه النقدي وأصبح من الممكن التحدث عن ايديولوجيا علمية وأخرى غير علمية، بعد أن كان العلم نقيض الايديولوجيا عند "ماركس" وأصبحت الايديولوجيا مساوية للعقل الطبقي الذي يعتبره " لينين" جزءا من البناء الفوقي الذي هو نتاج البناء التحتي ولا يمكن أن يتم التفسير في البناء الفوقي إلا بتغيير المجتمع ككل⁶ ». بحيث يمكن الجزم باستحالة ارتقاء العقل إلى قمة الهرم دون توفر القاعدة.

مفهوم الايديولوجيا مرادف لكلمة أو مفهوم الوعي، لذلك نجد أنه من بين شروط التغيير في أي مجتمع أو تنظيم لا بد من توفر الوعي، وللاقترب أكثر من موضوع المقال فإن التعصب الايديولوجي للمواقف والآراء الشخصية والجماعية و عدم تقبل الآخر، وحالة كره الذات التي يعيشها الجزائري هي نتيجة حتمية للتيه الهوياتي الذي يعيش فيه الفرد الجزائري؛ لدى ماركس أيضا نظرية عن الإيديولوجيا كالإغتراب، والتعبير مأخوذ عن الفيلسوف (لودفيغ فيورباخ). مؤلف كتاب: "جوهر المسيحية" 1864، حيث يأخذ منه ماركس فكرة « أن الدين إسقاط في سماء الأفكار لآمال الناس ومعتقداتهم، فهم قد خضعوا تلقائيا للاعتقاد بالوجود الحقيقي للآلهة التي ابتدعوها. يستعيد ماركس هذه الفكرة " الدين أفيون الشعوب" وسينقله فيما بعد إلى تحليل السلعة⁷».

أدلجة الدين ومحاولة توظيفه في مشاريع سياسية، وإجتماعية إلا أن « إهتراء الخطاب الديني للدولة وتراجع مصداقيته قياسا بخطاب الإسلاميين في التخوم و الهوامش الذي يتلذذ بإخفاقات الدولة الوطنية وبنعائها نعيًا حاداً⁸». جعل الأمر يفلت بين أيدي النظام، ويحتوي الإسلاميون الأوضاع بتنظيمات حزبية باسم الدين، زادت حدة التوتر في الكثير من المستويات وتعددت الآراء والمواقف، تعددت التنظيمات السياسية المتصارعة، كما تحررت الصحافة خاصة المكتوبة، لكن يبدو أن عملية الأدلجة للدين الإسلامي كان لها الأثر الكبير والتأثير الأكبر على الجزائريين حيث أخذ المسار السياسي يتجه تدريجياً نحو الإسلام السياسي العنيف في فترة ما بين نهاية الثمانينات إلى غاية نهاية التسعينات؛ وهذا كله بمثابة الفجوة التي حدثت عند الانتقال من مرحلة الثورة إلى مرحلة الدولة التي تميزت بغياب العنصر الأهم، والمحرك الأساس للبنى الذهنية، والعقلية ألا وهي الثقافة بالمعنى الواسع للكلمة.

ثانياً: الثقافة و الايديولوجيا

"تتحول الايديولوجيا بالماهية الثقافية العامة إلى وسيلة لإثبات الذات والهوية، مثال ذلك ما ذهب إليه "فيرتشايلد" (Child.Fair) في تعريفه للايديولوجيا بأنها مجموع الأفكار والمعتقدات التي تضي على جمع ما شخصية مميزة ومنفردة سواء كان هذا الجمع أمة من الأمم أو طبقة من الطبقات الاجتماعية أو مذهباً من المذاهب.

حاول "عبد الله العروبي" التوفيق بين المنظور المثالي والمادي للايديولوجيا حيث يميز فيه ثلاث معان كبرى يتخذها المفهوم تبعاً للمجالات الاجتماعية التي يبرز فيها: " نقول إن الحزب الفلاني يحمل أدلوجة"، " إن الايديولوجيا إذن هي منظومة فكرية لطبقات في فترة سيادتها أو بتعبير آخر هي فكر التكوين الاجتماعي

السائد أو المهيمن في المجتمع. أما اليوتوبيا فهي المنظومة الفكرية الخاصة بالطبقات الدنيا في السلم الاجتماعي أو هي فكرة التكوينات الساعية للمستقبل وبغض النظر عن كون الأفكار ايديولوجية أو يوتوبية فهي في واقع الأمر تعبير عن مصالح تكوينات اجتماعية مختلفة.

يرتبط مفهوم الايديولوجيا في صبغته السلبية بالتزييف، بحيث تعمل الايديولوجيا على إخفائه، ولا يمكن كشفه من طرف الإنسان العادي لأن القضية معقدة ومتداخلة، حيث يتطلب الكشف عنها ربط الأفكار والأقوال و القضايا والمذاهب بالظروف المجتمعية للفرد أو الجماعة، وهذا ما يتجسد في محاولة تفسير وفهم الهوية الثقافية في المجتمع الجزائري في مرحلة ما بعد الاستقلال، لقد تبنت الجزائر مرجعية الإسلام، والعروبة، والاشتراكية « بحكم أن النصوص المركزية كانت في تاريخ الجزائر المعاصرة مستندة إلى الإسلام إطارا مرجعيا مركزيا، مستمدة منه مشروعيته توطين الاشتراكية وتحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية وبناء الدولة الوطنية⁹» حيث كانت هناك عملية إدراج للدين في النظام الاقتصادي والسياسي.

حالة الإحباط والفشل التي رافقت المشروع المجتمعي (الاقتصاد، السياسة، الثقافة..) دفعت الكثير من شرائح المجتمع إلى التشبث بالاختيار الأخير المتبقي وهو الدين حيث كان المرجعية التي استطاعت تعويض الاخفاقات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية؛ كل فئة اجتماعية ترى المجتمع من موقعها الخاص حسب وضعيتها، فترى الأحداث طبقا لمنظورها الضيق، وإذا كانت الايديولوجيا تحرص على تثبيت الموقف الراهن، وبالتالي تعمل في بعض المواقف بوعي أو عن غير وعي على طمس معالم الظروف الحقيقية المحيطة بالمجتمع وحجبها سواء عن أعينها أو عن أعين الآخرين، فإن اليوتوبيا على النقيض من ذلك تعكس نضال الجماعات المقهورة في بحثها عن تفسير الأوضاع القائمة¹⁰؛ ذلك ما يفسر كل

المحاولات التي مرت بها التجربة الجزائرية فيما يسمى بالحركات الاجتماعية أو الاحتجاجية التي رفعت شعار النضال من أجل إسترجاع الهوية الثقافية المسلوبية من المجتمع الجزائري في مناسبات عديدة منذ الاستقلال.

ثالثا: وظائف الايديولوجيا

1- الوظيفة الاقتصادية: بناء نظام اقتصادي يقوم على مبادئ و قناعات فكرية نابعة من الهوية الثقافية للمجتمع. وهذا بهدف تحقيق التميز عن المجتمعات الأخرى، مما يؤدي إلى فرض الوجود من الناحية الاقتصادية المادية على المستوى المحلي، والأجنبي، التجربة الاقتصادية الجزائرية بعد الإستقلال كانت اشتراكية على الطريقة الجزائرية بامتياز، حيث كانت محدودية الفرد والمؤسسة الجزائرية في الممارسة الاقتصادية واضحة جلية؛ وذلك من خلال المستوى الثقافي بالدرجة الأولى، وكذا الفجوة بين الدولة و المؤسسات باعتبار فشل النظام الحاكم في دولة المجتمع.

2- الوظيفة الإجتماعية: تحقيق مشروع اجتماعي يلتف، ويجتمع عليه أفراد المجتمع الواحد، حيث يقوم هذا المشروع بتنظيم العلاقات، والتفاعل الاجتماعي في إطار الاتفاق حول منظومة من القيم و المعايير الأساسية، والجوهرية مع إمكانية الاختلاف في الأفكار، والقناعات الشخصية لكن ضرورة الاتفاق حول المبادئ، والفضائل .

3- وظيفة تحقيق الهوية: تؤدي الايديولوجيا وظيفة التوحيد والإدماج وإعطاء إحساس بالهوية لأولئك الذين يشتركون في اعتناقها، وتأكيدا من خلال تحديد الأدوار وتأكيد الشخصية من خلال هذه الأدوار، ومن ناحية أخرى تمر المجتمعات الحديثة في بدايتها بمجموعة من التوترات تساعد الايديولوجيا غالبا في التقليل من آثارها، فالايديولوجيا بأفكارها العامة المشتركة تدمج الأفراد في التكوين أو الجماعة

أو الحزب لتحديد الأشياء المقبولة والمهمات التي يجب تحقيقها، ذلك أن الايديولوجيا ليست فقط هي التي يرى بها أم من خلالها الإنسان عالمه، ولكنها أيضا مرآة يرى فيها ونافذة من خلالها يراه الآخرون¹¹».

4- الوظيفة السياسية: تنقسم إلى مرحلتين:

تعمل الايديولوجيا على نقد السلطة القائمة بغرض إظهار عيوبها وتناقضاتها وتعبئة الرأي العام لإزاحتها عن طريق الانتخابات أو القوة (الانقلاب السياسي)، من أهم مظاهرها الدفاع عن السلطة الجديدة وتسويغ أخطائها ودعوة الناس إلى دعمها والتحلي بالصبر وتفهم الظروف قبل المطالبة بتحقيق الوعود التي بذلت قبل تسلّم السلطة، وعدم الثقة في خصومهم الإيديولوجيين والخضوع لأقوالهم.

رابعا: إيديولوجية الفراغ

إشكالية الفراغ الإيديولوجي في المجتمع الجزائري لا تكمن في نقص أو غياب النصوص الرسمية و القانونية، التي تكون المشروع المجتمعي الإيديولوجي الجزائري بالمعنى الإيجابي للكلمة، إنما تكمن في الهوية، و القطيعة بين النصوص القانونية الموجودة في الواقع الاجتماعي بي و إمكانية تطبيقها، في خضم النماذج المقترحة و السلوكات الموجودة بصفة عامة بين النظرية والتطبيق؛ الحديث عن اديولوجية الفراغ يقود إلى إثارة قضية الأزمة الأخلاقية، و الدينية، و الفساد الناتج عن الاقتصاد الريعي البترولي. هذا الاقتصاد الذي أدى إلى إنتاج ثقافة اللامبالاة والإهمال لكل ما هو علمي وعملي.

كذلك الحديث عن تغييب، إقصاء، و تهيمش الثقافة و الإنتاج العلمي، «بحيث لا توجد ولا مجلة جزائرية ذات نوعية تُنشر في العالم. نتحدث عن العلم والأستاذ الجامعي الذي يمكن أن يهان ويعنف من طرف شرطي¹²»؛ يكون الحديث عن ايديولوجية الفراغ عندما يعاني المجتمع من عدم وجود توجه ايديولوجي بالمعنى

الاجبائي للكلمة الذي يقوم على إعداد خطط واستراتيجيات في المجالات الاقتصادية، والثقافية بالمعنى الوظيفي للكلمة. حيث تجسد ايدولوجية الفراغ ما يعرف باللامعيارية السائدة لدى الأفراد والمؤسسات، مما يؤدي إلى حالة من الاضطراب والتوتر والغيبوية الثقافية بصفة عامة.

هذه اللامعيارية في التفاعل الاجتماعي لا تكون جموداً فكرياً وثقافياً وإنما تؤدي إلى التقهقر والانحطاط، وظهور العديد من الظواهر السلبية من بينها التعصب للايدولوجية الخالصة، والصراعات بمختلف أنواعها بين أفراد المجتمع الواحد.

خامساً: ايدولوجية النقاء

المقصود بشكل مباشر في هذا العنصر هو وجود أفراد وجماعات يدعون وجود ثقافة وعرق وفكر نقي يختلف كل الاختلاف عن بقية الأفراد الآخرين أو الجماعات الأخرى، أحياناً بالإدعاء وأحياناً أخرى بمحاولة الترويج. بعض الانتهازيين وبعض المجموعات مارست الضغط على مراكز القرار كان السبب في الانسداد السياسي الذي انعكس بالسلب على المجالات الأخرى؛ والإشكال الحقيقي يتعد أكثر إنطلاقاً من كون بعض الدارسين اقتنعوا بايدولوجية النقاء هذه الفئة التي تتميز بقلة التجربة، كما تتميز بحماس الشباب أو الجهل أحياناً؛ حيث تحول مفهوم ايدولوجية النقاء من إشكال ثقافي إلى إشكال إثني ثقافي؛ بالنسبة للجهويين المتطرفين لا توجد العربية و العروبية كثقافة، إنما هناك ثقافة واحدة هي الثقافة البربرية وهي ثقافة الأسلاف من الضروري إعادة الاعتبار لها، وصنع إرث شخصي وجماعي بالنسبة لهم هو الأفضل، والحقيقي.

علمياً هذا الطرح يعتبر طرْحاً خاطئاً لأن نظرتهم تنحصر في مجموعة من المناطق، ولكن حقيقة الأمور هي غير ذلك بسبب الاختلاط العرقي الذي حدث تقريباً من الغرب إلى الشرق، « تعمد الايدولوجيا إلى تسخير العلوم لخدمتها، فتتخذ

عنها الحجج الصالحة للاستعمال وتستدعي النتائج العلمية شهودا على صحة حقائقها الإيمانية الشاملة لكل شيء، وهكذا يصبح العلم لديها دافعا تبريريا عن العقيدة¹³؛ في المقابل نجد فئة من العروبيين الذين يريدون تجسيد مفهوم وإيديولوجية النقاء، وهذا كذلك نوع من التطرف الذي يركز على النقاء الإثنوثقافي. التطرف لهذه الفئة لم يبق على المستوى الداخلي فهو على علاقة مع الخارج الجزائري. حيث تأثرت الفئتين بالأسلوب و النمط الغربي، والأسلوب و نمط المشرقي العربي.

بعض التركيبات الاجتماعية الغربية مارست العرقية كإيديولوجية منذ القرن 19 من خلال العرق الخالص أو النقي الأفضل، كذلك الأمر بالنسبة لبعض المجموعات والبلدان المشرقية، حيث أدى ذلك عند الغرب إلى مجازر لا يمكن نسيانها، والثانية عاشت ظروفًا بدوية توحشية كذلك لا يمكن تجاوزها، الثقافتان صنعنا المجتمع الجزائري الجديد بعد الاستقلال وهي الجزائر الغربية المشرق عربية، أما الثقافة الجزائرية بخصوصيتها الثقافية وسيورتها التاريخية فهي بمثابة المُغيب الأكبر.

سادسا: النصوص القانونية الرسمية والمسألة الثقافية

كان النظام السياسي في الجزائر خلال هذه الفترة من التاريخ استنادا إلى ما حدث في المرحلة السابقة خاصة ذلك الذي يتعلق بأزمة الهوية الثقافية والطرف المعارض للأحادية التاريخية للمجتمع الجزائري، وضمانا لاستمراره في الحكم اتسم بالحدز والحيطة لتفادي مواجهات أخرى من نفس النوع متحصنا بنصوص تشريعية وقوانين دستورية تحميه ومصالحه من جهة، وبمجموعة من الأجهزة الحزبية المؤطرة والمحيطة به والتي تكون معه النسق أو النظام للقدرة على المواجهة إن اقتضى الأمر من جهة أخرى.

لم تعرف الجزائر أبدا التعددية الحزبية، إذ تتولى قيادة الحزب الحاكم في الجزائر عملية تنظيم وتوجيه ومراقبة سياسة البلاد التي افتقرت خلال عقود من الزمن بعد الاستقلال إلى كل الممارسات الديمقراطية مهما كان نوعها أو شكلها، خاصة وأن حزب جبهة التحرير الوطني الذي يسمح له القانون فقط بمخاطبة الشعب وزرع أفكاره ويسط نفوذه دون غيره من الجمعيات التي كان وجودها من عدمه، فكانت الإيديولوجية السائدة آنذاك هي إيديولوجية حزب جبهة التحرير الوطني والشرعية الثورية التي ما تزال إلى يومنا هذا صالحة للاستعمال وسارية المفعول في النظام الجزائري رغم مرور أكثر من نصف القرن من الاستقلال "المنظمات الجماهيرية بإشراف حزب جبهة التحرير الوطني وتحت رقابته، وهو مكلف بتعبئة واسعة لفئات الشعب لتحقيق كبريات المهام السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تتوقف عليها تنمية البلاد والنجاح في بناء الاشتراكية، كما أن هذه المنظمات مكلفة دون غيرها بمهمة تنظيم الفلاحين والعمال والشباب والنساء، والعمل على تعميق وعيهم لمسؤوليتهم وللدور الكبير الذي يجب أن يقوموا به من أجل بناء الوطن"¹⁴.

تبنى النظام في السبعينيات سياسة أخذت طابعا فلاحيا صناعيا من خلال مشروع الثورة الزراعية والثورة الصناعية التي كانت نتائجها ضئيلة جدا في ظل انعدام قاعدة اقتصادية حقيقية تحملها إطارات من الدولة خاصة بعد الفراغ الرهيب الذي تركه الاحتلال في مختلف القطاعات؛ أما الثورة الثقافية فهي تلك التي تهدف في شكلها ومضمونها وكذا بأسلوبها المقدم للأمة إلى صياغة عامة وثابتة لمفهوم وحدة الأمة الجزائرية التي حسب تقدير النظام لا يمكن أن تكون خارج الإطار العربي الإسلامي الوحيد الذي يمكن له أن يحتوي مقومات الشخصية الوطنية لكل الجزائريين.

هذا ما جعل الطرح التعددي يتخذ إشكالية الأقليات، والجهات، والمناطق البعيدة كل البعد عن أية مرجعية اجتماعية واقعية لتعلن هذه التراكمات عن أزمة ثقافية؛ تعمل مؤسسات الدولة على إنتاج وإعادة إنتاج كل الممارسات التي تعكس التوجه الإيديولوجي الذي تبناه النظام للجزائر المستقلة حيث تم تغيير أكبر عدد ممكن أسماء المناطق والجهات دون أي اعتبار، كما رفضت مصالح الحالة المدنية للكثير من الأسماء للمولودين الجدد، وعلمت المدرسة تلاميذها أن المجتمع الجزائري خليط من الأقليات العرقية و اللهجات المحلية و النسبة الأكبر عرب، كما تعاملت مع التاريخ بطريقة الكتابة بمحاة، بالرغم من هذه الرداءة المستمرة والمتكررة التي تنتجها المؤسسات إلا أن الخطاب الرسمي يعلن عن ضرورة القضاء على كل مظاهر التفرقة، والجهوية كمثال عن الظواهر التي تعكس أزمة الهوية الثقافية الجزائرية، «.. دون إهمال أن عملية القضاء على كل هذه الممارسات الجهوية المعقدة كما يتمنى ذلك الخطاب الرسمي للدولة علنا قضية صعبة من جراء عمليات إعادة الإنتاج التي تقوم بها جزئيا المؤسسات الرسمية والاجتماعية الأخرى¹⁵».

ظاهرة أدلجة الثقافة في أي المجتمع حسب "غرامشي" لا يمكن الاستغناء عنها- ويجب أن تكون هناك دائما قضايا تحمل بعدا ايديولوجيا مطروحة في الواقع الاجتماعي، اقتصادية كانت، أو سياسية أو ثقافية، هنا يُقاس النمط الايديولوجي المعتمد بما حققه من نتائج لأن الوظيفة التي تؤديها الايديولوجيا تكون مسيرة و مُخطط لها من طرف أجهزة الدولة، وأجهزة الدولة حسب "التوسير" لا تتمثل في الحكومة، الإدارة، الجيش، الشرطة، المحاكم، السجن فقط؛ "إن الأجهزة الايديولوجية للدولة تمثل عددا من جوانب الواقع التي تمثل أمام الملاحظ المباشر على هيئة مؤسسات متميزة ومخصصة تتمثل في:

- الجهاز الإيديولوجي الديني للدولة (نظام الكنائس المختلفة).

- الجهاز الإيديولوجي المدرسي للدولة (نظام المدارس المختلفة: الخاصة والعمومية).
 - الجهاز الإيديولوجي القانوني للدولة.
 - الجهاز الإيديولوجي العائلي للدولة.
 - الجهاز الإيديولوجي السياسي للدولة (النظام السياسي و فئة الأحزاب المختلفة).
 - الجهاز الإيديولوجي النقابي للدولة.
 - الجهاز الإيديولوجي الإعلامي للدولة (صحف، راديو، تلفزة...)
 - الجهاز الإيديولوجي الثقافي للدولة (الآداب، الفنون الجميلة، الرياضة)...¹⁶ «
- لتطبيق سياستها الثورية الخاصة بالتعريب عملت السلطة استنادا على أجهزتها وإمكاناتها إلى شن حملة لبناء وتشديد دور الثقافة عبر مختلف مناطق التراب الوطني وسائل يتم من خلالها تنظيم وتوجيه رسالتها بالإضافة إلى المدارس، والإكماليات، والثانويات والجامعات بحيث تحصل السلطة على مقابل نتيجة مجانية التعليم التي منحها لأبناء الشعب وذلك من خلال المقررات والبرامج المدرسية التي غالبا ما تحمل في مضمونها الترويج لإيديولوجية السلطة وبالتالي إنشاء جيل يخدم النظام لكن يبدو أن النظام تناسى أو بالأحرى نسي شيئا ما داخل المدرسة الجزائرية التي جمعت بين المعرب والمفرنس من المعلمين، فالمعربين ينطلقون من الأصالة وتعليمهم كان في الزوايا أو أن أصل بعضهم من البلدان العربية مصر- سوريا- تونس إلا أنهم وجدوا نسخة مطابقة للفرنسيين كطرف آخر في المدرسة الجزائرية لذا كان من الضروري على المعربين فرض قوة أو سلطة معادية وصادم بين هذين الفريقين وبالتالي انشطرت الرسالة التعليمية ووقع تبني ازدواجي وصراعي للرسالة وليس تكاملي كما كان في تصور الدولة وهو إنتاج إنسان جزائري يجمع بين الأصالة والمعاصرة .

سابعا: سياسة التعريب

يعتبر هذا الإجراء من أهم السياسات التي تدل بشكل كبير على الخيارات الحاسمة التي تبنتها السلطة وقت ذلك، ذلك لما ترمز إليه اللغة كعنصر ثقافي في أي مجتمع خاصة عندما يتعلق الأمر بالمجتمعات المتخلفة حديثة الاستقلال التي مازالت تبحث عن العناصر المشكلة لهويتها الثقافية؛ هذه السياسة في إطار المشروع الثقافي الجزائري لا يمكن المرور عليها دون تمحيص للأسباب الحقيقية من ورائها، والهدف من تبنيها. نهج السياسة الثقافية الذي كان متبعا خاصة في السنوات الأولى من مرحلة الاستقلال يبدو عليه الاختلاف بمعنى الرفض، والإقصاء أو ما يعرف بالأيديولوجيا بالمعنى السلبي للكلمة « والمتتبع لتلك السياسة يلاحظ أنها بنيت على أرضية منقسمة أيديولوجيا ومتغايرة ثقافيا¹⁷ ». وقد بلغ الصراع ذروته في هذه المرحلة بين المعريين والمفرنسين حول مستقبل الجزائر فلقد اتهم المعربون بأنهم رجعيون في أفكارهم وأفعالهم واللغة الفرنسية متطورة ولها القدرة الكافية في التعامل بها مع العلوم واللغة في رأي ذوي الاتجاه الفرانكفوني ما هي إلا وسيلة للتعبير.

في حين اتهم المفرنسين بالعمالة والشيوعية والاعتراب عن الثقافة الوطنية وحثهم في ذلك أن استعمال الفرنسية يشكل خطرا على الاستقلال الثقافي واللغة ليست وسيلة للتعبير فقط إنما تعبير عن ثقافة الشعب وشخصيته وهي جزء من التراث الثقافي للشعب. وهذا النقاش بطبيعة الحال لم يكن مطروحا على العامة من الناس وما كان سائدا في الأوساط الشعبية هو الجهل لكلا اللغتين بحيث بلغت نسبة الأمية عشية الاستقلال أكثر من 85% لقد خلقت تلك الوضعية صعوبة كبيرة في عملية الاتصال بين النخبة وأفراد الشعب؛ «... فورا التعريب تختبئ استراتيجيات متعددة و متنوعة فقد كان التعريب وسيلة المعريين للاندماج في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية لفرض واقع المشاركة في السلطة و تأكيد الذات اجتماعيا، كما أن

مشروع التعريب لم يوحد النخبات الجزائرية التي حافظت على انشطارها بين نخبات مفرنسة وأخرى متعربة¹⁸»

مما أنتج بعد قرابة العقد والنصف من الزمن ظواهر وممارسات تعكس بشكل كبير الصراع الإيديولوجي الذي عرفه المجتمع الجزائري، لا يكاد يجمع أي رابط سياسي أو ثقافي بين الفئتين لاعتبار عدم وجود قاعدة ثقافية و مشروع مدرّوس تستند عليه هذه السياسة. هذه الفجوة بين الطرفين أفرغت النخبة من محتواها و جردتها من الأهداف المنوطة بها، «...ولئن تحدثت بعض القراءات السوسبيولوجية عن قصور معرفي وإحباط سياسي لدى النخبة الجزائرية، ألا أن الآثار الناجمة عن ذلك أعمق بكثير. فلم تنتج هذه النخبات عقلانية جديدة ولم تبلور صيغة مشروع مجتمعي مستقل عن السلطة. لذلك لم يوجد خطاب آخر يوازي خطاب الدولة، قادر على خلق مرجعية ثقافية بديلة.¹⁹» "ولتعزيز هذه الإيديولوجية (إيديولوجية السلطة) نجد أنه بعد الاستقلال لم تتعرض السلطة لأي طرح يتعلق بمستقبل السياسة اللغوية والثقافية بمفهومها الموضوعي، بالمقابل لعبت وسائل الإعلام دورا أساسيا وفعالا في خدمة النظرة الأحادية للسياسة الثقافية واللغوية الجزائرية.

ولأن الثقافة الجزائرية الأصل همشت فلا بد من دخول ثقافة أخرى مكانها فجمعت الدولة بين ثقافة المشرق العربي وغربتها الغربية من أوروبا وبالتحديد الثقافة الفرنسية، وكانت الجزائر الأرضية الخصبة لزراع الأفكار وبت الإيديولوجيات ما جعل البلد يعيش حالة من اللااستقرار منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، فأين هي هوية الشعب الجزائري الحقيقية وأين هي ثقافته وماذا فعل بها ؟ سؤال أكثر من مهم يحتاج إلى إجابات.

ثامنا: التطرف الإيديولوجي الجهوي لا يمكن فصل التطرف الجهوي عن التطرف الإيديولوجي هذا الذي يترجم خاصة من طرف التطور الكبير الذي عرفه تيارين

إيديولوجيين متطرفين، منتشرين بدرجات أكبر في أوساط الشباب؛ يقول (وادي بوزار) في كتابه: La Culture en Question أننا كنا جد متوقعين من خلال مهنتنا، الأستاذ الباحث التي يصفها بخاصية الصعوبة، وبتناقض فقدان القيمة في وسط مجتمع بصدد التحول. وذلك بحضور صعود طبقة جديدة من جيل الشباب، محاولين إعطاء تعريف لهذين التيارين²⁰».

التيار الأول يظهر في زي المجدد الروحي، الاجتماعي والثقافي والعمل إلى الإعداد لحركة الاندماج لأمة جديدة وهي الأمة العربية الإسلامية؛ التي يسعون من خلالها إلى إيقاف الانهيار الأخلاقي، والفساد. وهذا التيار الإيديولوجي أكثر منه انتماء وتأثراً ببلاد بالمشرق، حيث يتميز هذا التيار باحتقار كل ما له علاقة بالخصوصية الجزائرية والمغربية وبصفة عامة الخصوصيات والاختلافات التي نجدها عادة في أي مجتمع.

الخييات كثيرة ومتعددة في البلاد المغربية و أكثر منها ربما في بلاد المشرق. بناء مغرب الشعوب إذا تحقق في يوم من الأيام يصبح مشروع في غاية الأهمية، وجد منهجي ومفيد ولكن الإشكال يكمن في اكتشاف الهوية الكبيرة بين النظرية والميدان لأنه نفس الإيديولوجيا التي كونت هذين التيارين في البلاد الواحدة نجدها كذلك الحاجز الأكبر في بناء بلاد مغربية للشعوب؛ والغريب في الأمر أن نفس هذا التيار يحاول إرساء النظام الاقتصادي الرأسمالي، هذا الفعل حسب (وادي بوزار) هو نتيجة لعدم التوفيق الأفعال والسلوكات اليومية مع النظام الأخلاقي و العقائدي الرفيع الذي يطالبون به، ذلك الذي نجده عند الكثير من الأشخاص في هذا التيار بالإضافة إلى بعض ممارسات اللاتسامح، الأصولية، التطرف، العنف، النفاق، الذي ليس في الإسلام من شيء.

يجب التذكير أن الكاتب يقصد بهذا التحليل أنصار الإسلام السياسي، ليس الأفعال الجزئية البسيطة للعامة من الناس، وبضيف عن إسلام يتحدثون وعن أي إسلام يعيشون، وكم من المسلمين الحقيقيين يوجدون حالياً في الجزائر وحتى في العالم؟ وحسبه دائماً ليس أكثر من المؤمنين في الديانات الأخرى. من الماركسيين والاشتراكيين، والثوريين الحقيقيين²¹». باختصار فإننا نجد نفس الصفات والممارسات يتقاسمها هذا التيار الإيديولوجي مع الحركات الإيديولوجية الأخرى. كما أن هذا التيار حسب الكاتب يعرف نقطة ضعف جوهرية، وهي أن المبدأ الأساسي للانخراط يقوم على القناعة الدينية، الأمر الذي يجعل المجال مفتوحاً للتوظيف السياسي لهذا التيار؛ من المعقد مجادلة التيار الجهوي المفرط والمتطرف أو البربري، الشباب هنا كذلك في هذا التيار كانوا محل تحريض وتلاعب للأكبر منهم سناً؛ والمشكل الأول يكمن في اللغة الأم هذا الإشكال موجود فعلياً حيث يشكل عائقاً منذ البداية.

من البديهي أن الأشخاص الذين ينتمون إلى المجموعات البربرية والذين تعلموا اللغة الوطنية هم بصفة عامة. هم أكثر اعتدالاً ووسطية في آرائهم؛ هذا التيار مُغَطَّ بإيديولوجية الأسطورة البربرية، هذه الإيديولوجية التي تعود إلى المرحلة الكولونيالية، وذلك يتجسد مثلاً من خلال التفضيل النسبي لهذه المجموعات في مخطط التدريس الفرنسي. ليست الحقيقة ناقصة بأن هذه الحركة في جزء مُحتَوَاة من الخارج أين تتظاهر بقوة إيديولوجية الاختلاف في الذات ومع الآخر. استمرار الأحكام المسبقة في كل المجتمعات ذات الثقافة الإسلامية. والمجتمع الجزائري الحالي ليس بمنأى عنها، وبصفة عامة هذه إستراتيجية العُرف الإمبريالي.

المتبنون لهذا التيار الإيديولوجي يبالغون في خصوصيتهم واختلافهم إلى درجة الرفض في مخطط إستراتيجية سلطة الأم، للذهاب مع المجموعات العربية في الخلاف إلى أبعد حد، هذا النوع من التطرف يدعى بالتطرف الداخلي، حيث يحاول

أنصار هذا التيار التذكير بأن عدداً من المجموعات العربية تعد من الماضي، وهذا دليل على الحكم المسبق.

وبصفة عامة، هذه المجموعات العربية أغلبيتها دائماً ذات توجه الرفض والإقصاء وذكر هذا في فصل سابق، وسنقوله الآن: «هذه السهولة التي لا تصدق في الإقصاء على كل المستويات في التنظيم الاجتماعي، والدولة. هؤلاء البربرين جد متأثرين باللغة الفرنسية، والأنماط الثقافية الغربية، والعروبيين بالنسبة لهم جد متأثرين بالأنماط الثقافية الشرق أوسطية، هذا الخليط صنع الشخصية الجزائرية بين هذين النقيضين²²»؛ والغائب الوحيد هو الثقافة الجزائرية فالبعض ينتمي إلى الشرق والبعض الآخر إلى الغرب، مجتمع بهذه المواصفات لن يصمد طويلاً في مواجهة الزوال. ولا متطرف يريد ويستطيع التنازل؛ ردة الفعل الأكثر تداولاً بين الأفراد والمجموعات الفردية المقصية والمقصية من أين تستوحي هذا التراجع والتقهقر، حكم مسبق ضد حكم مسبق، إقصاء ضد إقصاء، عنف ضد عنف.

بالرغم من أن عدداً كبيراً من البربرين مرتبطون بعمق بجزائريتهم، وأحسن دليل على ذلك حرب التحرير وما قدمته هذه المجموعات من التضحية، وكذلك وبالرغم من العوامل الخارجية المؤثرة في الصراع إلا أن المشكل لا يمكن حله دون مسؤولية داخلية. "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" ذلك انطلاقاً من أشخاص وجماعات يشعرون بالإقصاء في مجتمعاتهم، أو عندما لا يُعترف بهويتهم الفردية في الهوية الجماعية، تُواجه معارضتهم بكل أشكال العنف الرمزي والجسدي في الكثير من المناسبات.

خاتمة:

الإيديولوجيا من بين المفاهيم الجوهرية والأساسية في علم الاجتماع، وهو مفهوم كثير التداول في الدراسات السوسيولوجية، حيث تكمن أهميته أولاً في الجدل

الذي يثار باستمرار حول موضوعية، وإيديولوجية الدراسات السوسولوجية، وبتعبير آخر علمية أو إيديولوجية علم الاجتماع.

ثانياً بالنسبة للظاهرة لموضوع الدراسة فإن الإيديولوجية تم اعتمادها كمتغير ومفهوم نظراً لعلاقتها القوية بالظاهرة المدروسة لأن المسألة الثقافية كانت بدايتها في شكل اختلاف في وجهات النظر وبعض الأولويات من الناحية الهوياتية، لكنه سرعان ما تحول إلى خلاف وصراع إيديولوجي؛ حيث كانت البداية في صفوف إطارات وقيادات في الحركة الوطنية قبل الاستقلال، وبعد الاستقلال كان الصراع الإيديولوجي واضح وجلي حول المستقبل الثقافي للفرد الجزائري.

هذه الاختيارات التي انعكست بالسلب على صورة الدولة و السلطة عند بعض الفئات من المجتمع وهي فئات النخبة، مع مرور الوقت وبالتحديد في مطلع السبعينات أخذ الصراع الإيديولوجي شكلاً جديداً و ذلك من خلال بداية المواجهة بين السلطة وفئات من المجتمع وهذا دليل على انتقال الظاهرة إلى مستوى القاعدة منذ ذلك الحين؛ مما دفع بالكثير من الباحثين للكتابة عن الظاهرة؛ لكن الظاهرة بقيت قيد التلاعب والاستغلال من طرف جهات وأطراف في الداخل والخارج بتوظيف إيديولوجي.

هوامش البحث:

¹ - وسيلة خزار ، الايديولوجيا وعلم الاجتماع، ط1، منتدى المعارف، بيروت، لبنان، 2013، ص 32. نقلا عن: Boudon, L'idiologie ou l'origine des idées reçues ,p 31

² - المرجع نفسه ، ص 22.

³ - المرجع نفسه ، ص 24.

⁴ - فليب كابان-جان فرنسوا دورتيه، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، ط1. ت إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، 2010.

⁵ لوي ألتوسير، دفاثر فلسفية مختارة، ط1، ترجمة محمد بن سبيلا و عبد السلام بن عبد العالي، دار تونفال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص 09.

⁶ - وسيلة خزار، المرجع السابق، ص28.

⁷ - فليب كابان، المرجع السابق، ص41.

⁸ سليمان الرياشي، وآخرون، : الأزمة الجزائرية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999. ص 249.

⁹ - سليمان الرياشي، وآخرون، المرجع السابق ص 246، نقلا عن:

Bruno Etienne, Algerie :Cultures et revolution, l'histoire immidiate

p130

¹⁰ - المرجع نفسه ، ص 42.

¹¹ - عبد الله عبد الوهاب، الايدولوجيا و اليوتوبيا، الإسكندرية، مصر، 2000، ص 63.

¹² -wadi bouzar, La culture en question, Alger, ENAL, 1984. p 168.

¹³ - كارل منهايم، الإيدولوجيا واليوتوبيا: ط1، ترجمة محمد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، 1980، ص 15.

¹⁴ - Ali Genoune, Chronologie du mouvement berbère, Alger, Casbah Edition, 1999, P 34.

¹⁵ -عبد الناصر جابي، الانتخابات، الدولة والمجتمع، دار القصبية للنشر، الجزائر، ص33.

¹⁶ - وسيلة خزار، المرجع السابق، ص 35.

¹⁷ - سليمان الرياشي وآخرون، مرجع سابق، ص 443.

¹⁸ - المنصف وناس، الدولة الوطنية و المجتمع المدني في الجزائر، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان 1999، ص249.

¹⁹ - المرجع نفسه، ص 250.

²⁰ - Wadi bouzar, OPCIT, .p150.

²¹ - IBID ,p 151.

²² - IBID, p 152.